الانحـــراف الجنسى

أســـبابه وعلاجه

للأستاذ عبد العزيز جادو

كان الدكتور سيجموند فرويد ، مبتكر التحليل النفسى ، أول من وصف الأطفال بأنهم « ذوو انحراف متعدد الأشكال » Polymorphous pérverts ولقد أثار بذلك عاصفة من السخط واتهم من جميع الأوساط بقذف الطفولة البريئة وطعنها .

ماذا تعنى هذه العبارة ؟

إنها تعنى بالبداهة السهلة أن كل نوع من أنواع الانحراف الجنسى ينغمس فيه المراهقون وينقاضى عنه أو نتساهل فيه ، يمكن أن يُبحث فى حالات النشاط العادى عند الأطفال .

وإنا إذا قلبنا هذا الأمر على وجوهه المختلفة ، فلا يكون أسوأ مما كان ، فليس الأطفال هم الذين يتصرفون كالرجال ، ولكن الرجال هم الذين يتصرفون كالأطفال . ويقصد بهذا أيضاً أن كل طفل به انحراف جنسى يكون فى الغالب الأعم ناقص النمو من جهة غريزته الجنسية . ويرقد ارتقاؤه ونضجه وراء تلك الغريزة الجنسية عند المراهق العادى .

وليس الطفل هو المنحرف الضال ، وإنما يعتبر المنحرف طفلا

وكلمة « منحرف » Pervert معناها التحول عن المجرى الطبيعى . والمنحرف الجنسى هو الذى لا يستعمل دافعه الجنسى بالطريقة السوية .

وكثير من الرجال لا يستطيعون جعل حياتهم الغرامية متناسقة بقدر الإمكان ، لاعتقادهم أن كل شىء يميل عن الطريق القويم إنما هو انحراف . وهناك بالفعل مجال فى لعب الحب الأولى لكل نوع من أنواع الملاطفة والتودد .

ويمكن استعمال أى صورة من صور الاتصال التى يحتمل أن تكون مقبولة ومنبهة Stimulating لكل من الطرفين على شرط أن تؤدى إلى الاختلاط الجنسى Sexual Union ولا تحل محله

واللاعبة للغرض الجنسى يجب أن تظل بمثابة « المشهيات » لا أن تكون الوليمة ذاتها .

وفى الانحراف الجنسى أصبحت اللاعبة غاية فى حد ذاتها ، وليس الامتزاج أو الصلة بشخص من الجنس الآخر هى الغاية المشتهاة .

فلكى ندرك كيف يحدث هذا ، علينا أن نرجع إلى الطفل ، فليس هناك من يقرر بأن الطفل ، بما له من أعضاء ناقصة النمو وبما يحتاجه من إفرازغددى ، يكون فى حالة جنسية كحالة المراهق أو البالغ ؛ ولكنه قادر من أول أمره على جلب اللذة عن طريق الإحساسات الجسدية ، وهذه هى خلاصة اللذة الجنسية ولو أنها لا تهم الغرض الجنسى فى شىء .

وهكذا نرى أن المص ليس وسيلة لخفف الجوع وتهوين أمره ، ولكنه يحس لذة فى حد ذاته . وهذا ما يلمسه أى فرد من مشاهدته طفلا يلعب بدميته . ويقتنع معظم الناس بأن التدخين ، سواء بالغليون أو بالسيجار يدين بشىء من جاذبيته إلى مخلفات اللذة أو بقائها فى الشفة ، وتكون هذه اللذة فى الغالب كلذة التقبيل سواء بسواء .

وهناك فى الواقع عدة أجزاء فى الجسم تلتقى فيها المحتويات الداخلية أى الغشاء المخاطى بالجلد الخارجى . وجميع هذه المناطق ذات حساسية وشعور باللذة . والفم — كما ذكرنا — أحد تلك المناطق ، كما أن الثغرة التى فى الطرف المقابل للقناة الهضمية منطقة هى الأخرى .

وموضع الأعضاء التناسلية فى كل من الذكر والأنثى متشابه . وكلما اطرد التحسن وتدرج النضج وصلت تلك الأعضاء إلى درجة أعلى من المناطق الأخرى . ولو أن هذه المناطق لن تفقد حساسيتها جميعاً ويمكن أن تقوم بدورها فى الحياة الجنسية .

ولقد امتدت هذه الحساسية إلى أن بلغت بشكل واضح الأرداف . أما كيف أحاطت هذه الحساسية بتلك المنطقة حتى أن اللذة والألم صارا أكثر تمييزاً فيها ، فهى مسألة لم يصل العلم إلى حلها . ولكن لاريب فى أن وظيفة الأم المحبوبة عند اعتنائها بنظافة رضيعها شىء له أهميته . كما أن ملاطفات المرأة الفاتنة غير المتزوجة عند إعجابها بالطفل لها أهميتها أيضاً . ومما لا شك فيه أن مثل هذه العادات تقوى اللذة الأصيلة المكتسبة وتعززها .

وقليل من الناس فى حاجة إلى أن يعرفوا أن هذه الطاقة من اللذة والألم كائنة . وفى النزوات التى تصحب العادة السرية يحتل الجلد whipping المكانة الأولى . وليس بعجيب أن تأخذ تلك النزوة هذه الهيئة ، إذ أن تخيل تجربة ماضية أسهل من التوسل إلى وصف شىء ليس للمرء معرفة شخصية به ؛ وهذا هو الوضع العادى للاستمناء الصبيانى بالنسبة إلى الامتزاج الجنسى .

ولا يكون الاستمناء انحرافاً إلا حينما يتم فى حياة المراهق بإيثاره إياه على حياة جنسية كاملة ممكنة . وإنه لنشاط عادى للصبى المنقب تنقيباً اختيارياً ليس فيه أى ضرر إلا عند ما يأتى القلق والخوف والجزع ليتجمع ويتركز حوله .

وكثير من المراهقين الذين يمنعهم الطبع أو الظروف عن الزواج ولا يمكنهم التمتع بالعملية الجنسية المحرمة ، ربما يكون هذا هو الحل السوى للحافز الجنسى عندهم . ولكن يجب أن نذكر ونضع نصب أعيننا الحقيقة التى تتركز فى الفعالية الذاتية فهى تشبع الشعور الذاتى إلى حد يصبح فيه ممتلا .

واقتران الجلد whipping باللذة الجنسية هو السبيل الذى يمكن أن يوصل إلى القمم الوهمية ، ولقد أصبح عبادة منظمة ذات آداب خاصة وحياة اجتماعية سفلية .

وله ، كما أسلفنا القول ، أسس طبيعية . ولا ينبغى أن يلتبس علينا الأمر بينه وبين السادية ؛ فالسادية حالة لا يمكن أن تأتى فيها الهزة أو الرعشة الجنسية إلا إذا كانت مصحوبة بالتعذيب والتشويه والبتر ، وتنتهى فى أكثر الحالات بموت الضحية . ويكفى بقاؤها لتذكيرنا بأنه لا وجود لنوع من الرعشات لا يمكن أن يكون ملتوياً فى صالح الغريزة الجنسية .

وبينما نرى أحد الأشخاص فى حاجة إلى التحكم فى الباعث Object على رغبته أو مشافيته والاستبداد به أو تعذيبه ، نرى آخر يختبر اللذة الجنسية الكاملة ويتذوقها حين يكون مضروباً أو عند ما يُهان ويؤذى ويحتقر . وهذا الأخير هو الذى يطلق عليه : (مازوكى) Masochist

ومتوسط الرجال والنساء يمكنهم أن يكشفوا فى أنفسهم جراثيم الاتجاهين ولا حاجة بهم إلى القلق والانزعاج من هذه العاينة . واللامبة يمكن أن تضيف صنفاً منسوجاً فى مصلحة الحب بدون خطر من أن يتدهور انحرافا .

٣٢ . ٤٩

والفيتيشية Fetichism انحراف جنسى آخر يأخذ صوراً غريبة . ومعناه فى الأصل أن الباعث على التهيج الجنسى ليس شخصاً بعينه أو أشخاصاً معينين ولكنه بعض شىء . وقد يكون هذا الشىء حذاء أو جوربا أو معطفاً من الفرو أو أى شىء ذا وبر أو خصلة من الشعر أو أى أداة من أدوات الملبس . كما ان أصل الفيتيشية فى جميع الانحرافات قد يرجع إلى بعض تجارب صبيانية

يقول الشاعر (ما الحب إلا للحبيب الأول) وهى حقيقة سيكولوجية ؛ ذلك أن سلوك الطفل فى أزمة من الأزمات الانفعالية يمكنه أن يصنع نموذجاً من السلوك حينما تتلاقى فيما بعد بعض الحالات بميل انفعالى يماثلها .

وطبيعى أنه كان ينبغى أن يثير الليبيدو ، وهو تيار الحب حينما كان قصده كلما ترعرع الفرد . فهو فى البداية يتركز بكليته فى الذات ، ولكن وظائف الفم تبعث على تحويل التيار إلى نفسها فتتغذو محبة لشخص آخر .

وهذا التعلق الأول بالأم جنسى بأوسع معانى الكلمة — ليستبدل به فيما بعد حباً يقوم على تبادل النعمة والاستحسان .

وإن لم يحوّل هذا التعلق الأساسى كما يجب ، يحار الفرد فى ارتقائه الجنسى ، ولا تكون شهوته Libido طليقة كما يجب أن تكون لكى تنفذ أو تمر من الأم إلى رفيق الدراسة أو صديق من الجنس ذاته إلى أن تجد أخيراً حبيباً ورفيقاً فى شخص ما من الجنس الآخر . وإنه لو تحرر الدافع الجنسى من الأم ، لكان عرضة لمقابلة الكبت فى اى مرحلة من مراحل النضج والارتقاء ؛ ومن ثم يرتد راجعاً إلى الوراء ، كمجرى من الماء وضعت أمامه السدود ، وينتشر فى مساحة أوسع . ويمكن إذن أن يكون الفرد مراهقاً فى كل شىء ما عدا الحافز الجنسى الذى يظل فى المستوى الصبيانى مضافاً إلى ذلك الشذوذ . وقد يكون نوع الكبت موضحاً بواسطة حالة ثابتة .

يضبط صبى فى السادسة من عمره وهو يقارن هيكله بهيكل أخته التى تصغره ، وبدلا من أن يتشاءم والداه من هذا الأمر باعتباره دافعاً طبيعياً للاستطلاع وبوجهانه التوجيه الصحيح بتعليمه الحقائق الواضحة ، تراهما يردّانه عنه بغضب وسخط .

إذن فالارتقاء الجنسى فى الولد قُطع دابره من أول الأمر ، وبعد ذلك حين يأخذ النشاط التلقائى فى تنبيه الغريزة والتأثير فيها

لازدياد النمو يشعر نفسه « بعدم الأهمية » فالحادث الأصلي يضاف إليه الشعور بالخطيئة والندم وتأنيب الضمير ، كل هذا لا بد أن ينسى وإلا سيجعله قليل الاهتمام بالجنس الآخر ، وبالتالي تقمع شهوته .

وقد ينجذب وراء تعلقه بأمه واتصاله بها . ولكن بما أنه من غير المقبول أن تظهر في نزواته ، فإنه يجد بديلا من ذلك في بعض أشياء في لا شعوره يقرنها بأمه . وربما تكون رائحة معطفها أو لمسه إياه حين يكون على انفراد هو الذي يؤنس وحدته . وربما يكون الحذاء الذي تركته خارج باب حجرة نومها هو الذي يؤكد له أنها في الداخل وأنها على استعداد للترحيب به في سريرها.

وكما أن أي شيء يتناسب غالباً مع ما يشاركه في العاطفة ، كذلك تأخذ الحياة الجنسية لهذا الشاب صورة العادة السرية تحت المؤثرات الفيتيشية ، وربما لا يرجع إلى عهد بعيد ، ولكنه يرجع إلى أواخر طفولته عند ما شعر في نفسه بمؤثر سار حين قاده حب الاستطلاع إلى النظر من خلال ثقب مفتاح (الحمام) وقت أن كانت أخته الكبيرة تغتسل .

واحتمال آخر هو أنه قد يصير محباً لإظهار جسده لغيره Exihbitionist غير قادر على اللذة الجنسية السوية ، ولكن يتوق إلى عرض نفسه على بنات المدرسة — وأخيراً ينقاد لبعض نماذج من السلوك المخزون في الماضي .

هذه كلها أمثلة للانحراف الناتج عن النكوص Regression ولكننا لم نشر إلى التفسير بعد .

ومتوسط البنين والبنات الذين تتراوح أسنانهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة على جهة التقريب يكونون في مرحلة حب الجنس للجنس Homosexuality حيث يتركز الليبيدو على واحد من الجنس ذاته . وليس معنى هذا أن كل صغير يتحمس في اللذة الجنسية ، ولكن معناه أن الاهتمام المتيقظ وأوهام أحلام اليقظة تتركز حول بعض زملاء اللعب أو المدرسين .

وهذه الحالة إن كانت في صورة تبلغ من الصحة والسلامة منتهاها يكون صاحبها فيها « شبه بطل » أو يكون « ذا بطش شديد » . وهذه المرحلة تتميز بطبيعة الحال في المرحلة الثانية والأخيرة من ميل الجنس إلى الجنس الآخر Heterosexuality وضبط الليبيدو وأوصده من تقدمه كما يحتمل أن يحدث من خوف في الحياة الجنسية ناتج من مشاهدته مشاجرات عائلية ، أو من أي سبب من مئات الأسباب المحتملة للاغراض اللاشعورية ، ربما يوقفه (أي الليبيدو) عند مرحلة حب الجنس للجنس . وهنا أيضاً نجد اختلافات وفوارق في الدرجة والطبع .

ونجد بعض محبي الجنس ذاته أن تصور الامتزاج بواحد من الجنس الآخر يبعث حتماً على النفور والاشمئزاز . وآخرون يغالبون شعورهم بكل جهد ليتزوجوا وينسلوا أطفالا .

وبعض الذكور من محبي نفس الجنس تبدو على هيأتهم الذكورة كاملة ، ومزاولة الانحراف الجنسي بين هؤلاء كان يشجع عليها قدماء اليونان إذ كانوا يعتقدون أن هذه الارتباطات إنما جعلت للتدريب الصحيح وللجنود الطيبين . ولقد قيل إن حب الجنس للجنس يقابل اليوم بمثل هذا التشجيع في بلدان أخرى ولأسباب مماثلة .

وفي الطرف الآخر من السلم يوجد نموذج « اليانسيه » المخنث ، والمرأة المسترجلة . ويوجد غالباً في مثل هذه الحالات خطأ ما في الارتقاء الغددي والجسدي . والتقارير الطبية الأخيرة في أثر تأدية هرمونات الجنس ، فتحت باب الأمل لمثل أولئك الناس ؛ لكي يكونوا عاديين وفي حالة سوية .

ومحبو الجنس ذاته ، من جهة أخرى ليس فيهم الرغبة ليعالجوا ويشفوا وسيجادلون بعد زمن في تحبيذ طريقهم في الحياة .

ويجب أن يكون واضحاً للقارئ الآن أن الانحراف الجنسي عصاب Neurosis جوهري ناتج عن أسباب مماثلة ، وأنه سهل الانقياد لمعالجة مماثلة شأنه شأن العصابات الأخرى .

والأسباب في كل الحالات مغمورة في اللاشعور . وفي قدرة التحليل النفسي أن يحرر الليبيدو ويجعله يرق إلى طرق سوية . ولكن هذا ليس من اليسور عمله ما دام الانحراف الجنسي يتنحى عن المسئوليات ويتملص منها . والعلاج لا بد أن تصحبه الرغبة في مواجهة حياة نقية تقية . وليس هناك بالطبع من يرغب رغبة أكيدة في الشفاء ويترك اليأس يستولي عليه .

عبد العزيز جاويد